تحدِّيات كفاءاتِ الكوادر الشرعية والفكرية
ورفع مهاراتها في مجال مواجهة التطرف الفكري

ورقة عمل مقدَّمة إلى:

مؤتمر مواجهة التطرف الفكري: الواقع والمأمول

الذي تقيمه وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية

الكويت: ١٧-١٩ ربيع الثاني ١٤٣٨/ ١٥-١٧ يناير ٢٠١٦

إعداد:

عبد الحق التركماني

رئيس مركز دراسات تفسير الإسلام في بريطانيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المبعوث رحمةً للعالمين، صلى الله وسلَّمَ عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

مدخـــــل:

ظاهرة الغلو في الدِّين، والتطرف في الفكر؛ من أسوَأ الظواهر في حياتنا المعاصرة، حيث تدفع بالشباب في طريق العنف والإرهاب، وتهدد أمن واستقرار بلدان المسلمين، وتشغلهم عن التنمية والإصلاح، وتعطي الذرائع لضغوط القوى الخارجية وتدخلاتها الوقحة في المجتمعات المسلمة. أما على المستوى الدينيِّ: فإنَّ هذه الظاهرة تشوِّه حقائق دين الإسلام، وتعيق تقدم دعوته، وتنشر مزيدًا من التحريض والكراهية ضدَّه. لهذه الأسباب ـ وغيرها ـ يكتسب هذا المؤتمرُ أهميةً بالغةً، فقد أحسنتْ وزارةُ الأوقاف والشئون الإسلامية في دولة الكويت ـ حرسها الله تعالى وأدام عليها الخيرات والبركات ووفَّق أميرَها وحكومتها وشعبها لما فيه خير الدنيا والآخرة ـ؛ أحسنتْ في اختيار موضوع (التطرف الفكري)، الذي يدخل في صلب اختصاصها واهتمامها، ومعالجة هذا الجانب إنما هو مساهمة قوية فاعلة في (مواجهة ظاهرة العنف والإرهاب) من جذورها، فإن الانحراف في العقائد والمفاهيم والأفكار أساس لكل شرٍّ وفسادٍ وضلالٍ.

وقد تفضَّلت اللجنةُ العليا للمؤتمر باستكتابي بورقة عمل عن: (تحديات الكوادر[1]

---

(١) الكوادر جمع: كادر، وهي كلمة فرنسية Cadre، تستعمل للدلالة على كبار العاملين في المكاتب والإمارات والوزارات ومرافق الدولة والقطاع الخاص. وعُرِّفت في «معجم اللغة العربية المعاصرة» للدكتور أحمد مختار عمر وآخرين، عالم الكتب، بيروت: ١٤٢٩، ١٨٨٩/٣ بأنها: «طاقة بشرية تساعد في تنمية المجتمع وتقدمه إذا أحسن استغلالها»، وأصل معناها في الفرنسية: الإطار، منه: إطار الصورة، وإطار النظَّارة. لهذا اقترح بعضهم استعمال كلمة: إطار، ويجمع على: أُطُر، فيقال: أُطُر التعليم، وأُطُر وزارة كذا، وأُطُر المهندسين، وأُطُر الأطباء. واقترح آخرون استعمال كلمة: مَلاك وملاكات ـ بفتح الميم وكسرها ـ انظر: «معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة» لمحمد العدناني، مكتبة لبنان، بيروت:

الشرعية والفكرية ورفع مهاراتها في مجال مواجهة التطرف الفكري)، فاجتهدت في كتابة هذه الورقة الموجزة، سائلًا المولى عزَّ وجلَّ الإصابة والقبول، كما أشكر القائمين على المؤتمر، وأقدر حسن ظنهم وثقتهم بأخيهم، جزاهم الله خيرًا، وبارك فيهم.

مشكلة الورقة وأهمية بحثها:

إنَّ مشكلة «التطرف الفكري» ظاهرة معاصرة تقف ورائها وفي صفها أصوات وأقلام تستغل المنابر الإعلامية المختلفة، خاصة شبكات التواصل الاجتماعي، فتطرح من خلالها شبهات تروج لتفسيراتها وأفكارها؛ فلا بد من مواجهتها بكفاءات علمية وفكرية قادرة على البرهنة والإقناع، ورد الأباطيل، وكشف الشبهات، بما يحقق الهدف المنشود في حماية أبناء المسلمين من الأفكار الهدامة، والأخذ بأيدي من ضلَّ منهم إلى منهج التوسط والاعتدال. وتظهر في هذا السبيل جملة من «التحديات» التي تواجه تلك الكفاءات، كما تظهر الحاجة إلى تملك تلك الكفاءات «المهارات» اللازمة في المتابعة والفهم والحوار والإقناع. ومن هنا فإنني سأحاول التطرق في هذه الورقة الموجزة إلى طرف من تلك «التحديات»، وأقف عند بعض «المهارات» التي أراها ضرورية لمعالجة ومواجهة التطرف والغلو، فينبغي العناية بها، والسعي في تطويرها، ومن الله تعالى نستمدُّ العون والتوفيق.

ثلاث محاور أساسية للتحديات والمهارات:

بما أن هذا المؤتمر يُعنى بالدرجة الأولى بالجانب العملي من خلال رصد الواقع ودراسة سبل معالجته ـ وهذا جانب جدُّ مهمٌّ ومفيد إن شاء الله ـ؛ فإنني سأحاول توظيف خبرتي الشخصية في متابعة ظاهرة الغلو والتطرف، وصلتي بطلبة العلم والدعاة والمثقفين المهتمين بهذا المجال، وذلك بتناول ثلاثة محاور، أُراها أساسية ومهمة في موضوع الورقة، وهي بمجموعها تمثل جوهر التحديات، بما يقتضي إزاءها توفير الخبرات والمهارات اللازمة، وهي:

١- فهم مقاصد ومآلات الخطاب المغذي للتطرف.

٢- مواجهة سيل الشبهات.

١٩٨٤م، ٥٧٣، «تصحيحات لغوية» لعبد اللطيف الشويرف، الدار العربية للكتاب، طرابلس: ١٩٩٧م، ٢٧٨.

٣- التحديات السلوكية والعملية والمهارات المطلوبة.

أولًا: فهم مقاصد ومآلات الخطاب المغذِّي للتطرف:

لا تمثل الدعوة الصريحة إلى العنف والإرهاب والقتل والتفجير التحدي الأكبر، لأنها خطاب مفضوح سرعان ما تقوم الجهات الأمنية باتخاذ ما يلزم حيال أصحابها، لكن التحدي الحقيقي في الخطاب الذي يغذي نزعة التطرف والغلو، ويدفع إلى العنف والإرهاب، وذلك بطريقة متدرجة، وتسلسل فكري مترابط، يؤدي إلى النتائج السيئة دون ظهور التأثير المباشر لجذورها. هذا الخطاب هو الخطاب المنتشر اليوم ـ وبقوة واتساع ـ في منابر القنوات الفضائية ومواقع الانترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، وهو يستند إلى نظرية متكاملة في فهم الإسلام، تُعرف بنظرية التفسير السياسي والنفعي للدين[٢]، حيثُ تقدِّم أُطروحات اعتقادية وفكرية تسبب تحريفًا وتشويهًا لمفاهيم الدين الكبرى ومقاصده وغاياته في ذهن المتلقي، منها على سبيل المثال:

١- أن الغاية من الرسالة الإلهية والبعثة المحمدية والديانة الإسلامية إقامة عدل الدنيا ومواجهة الظلم والاستبداد والطبقية.

٢- أنَّ سبب بدء الرُّسل عليهم السلام بدعوة أقوامهم إلى توحيد الله عز وجل ونفي الشرك؛ هو أن الشرك والوثنية والخرافة تعيق الطريق أمام حرية الإنسان ومواهبه وقوته ونهضته.

٣- أن العبادات المحضة ـ وهي العبادات القلبية وعبادات اللسان والصلاة والزكاة والصيام والحج ـ لا تمثُّل المقصود الحقيقي من إقامة الدين ونيل رضا الله والنجاة في الآخرة؛ إن لم تتحول إلى ثورة على الأوضاع الاجتماعية والسياسية القائمة، فهي مقصودة بالتبعية لا بالأصالة.

---

(٢) راجع: «التفسير السياسي للدين» للأستاذ وحيد الدين خان، و«التفسير السياسي للإسلام» للشيخ أبي الحسن الندوي، طبع كلاهما بتقديمي وتعليقي، مركز دراسات تفسير الإسلام، بريطانيا: ٢٠١٤م، وكتابي: «مقدمة في تفسير الإسلام»، صدر حديثًا عن مركز دراسات تفسير الإسلام في بريطانيا.

٤- أن العبادات المحضة هي وسائل تدريبية وتمارين رياضية لتهيئة الإنسان المسلم لإقامة النظام الاجتماعي العادل بين البشر كما يريده الله تعالى.

٥- أن الغاية من «تديُّن» الشاب و«التزامه» بأحكام دينه؛ هو أن يصبح عضوًا فاعلًا، وعنصرًا مجندًا، لتحقيق غاية الدين المتمثلة فيما ذُكر في النقاط السابقة، وإلا فتدينه ناقص إن لم يكن باطلًا، والتزامه قاصرٌ إن لم يكن فاسدًا.

لقد تبيَّن للباحث من خلال التتبُّع والاستقصاء على مدى خمس سنوات؛ أن هذه المفاهيم الكلية يتمُّ ترويجها في أكثر وسائل التعليم والإعلام والتأثير من قبل مئات الدعاة والمفكرين الإسلاميين، والناشطين الحركيين، ليس بطريقة صريحة وصادمة، ولكن من خلال مفاهيم فكرية التي تبدو في ظاهرها حسنة، بل قد يظنُّ الكثيرون أنها تحارب نزعات الغلو والتطرف. من أبرز تلك المفاهيم: «النهضة»، «التنمية»، «عمارة الأرض»، «صناعة الحياة»، «حركة الحياة»، «التغيير»، وإضافة الاصطلاح الشرعي الشريف «الفقه» في غير موضعه، مثل: «فقه الثورة»، «فقه التغيير»، «الفقه اللَّاهب»، إلى غير ذلك.

يتمثل التحدي ـ هنا ـ في فهم الكوادر الدعوية والثقافية والفكرية لهذه الأطروحات، وإدراك أبعادها الاعتقادية والفكرية، والتنبه إلى ما ينتج عنها من تغذية التطرف والغلو، ثم الانتقال بعد ذلك لاستعمال العنف والإرهاب. ويمكننا أن نوضح بعض ذلك من خلال الجدول التالي:

التأصيل العقائدي والفكري	الواقع الإنساني	النتيجة الفكرية	الأثر الواقعي
الغاية من الدين إقامة عدل الدنيا	انتشار الظلم والطبقية والاستبداد	غياب غاية الدين	١ـ إما (الإلحاد) نتيجة الاعتقاد بفشل الدين في تغيير الواقع. ٢ـ وإما الشعور بالفشل والإحباط الذي يؤدي غالبًا إلى (العنف والإرهاب) للوصول إلى غاية الدين.
الغاية من دعوة التوحيد ومحاربة الشرك القضاء على أسباب الطبقية والظلم وتحقيق الحرية الإنسانية	المسلمون (الذين هم ثمرة دعوة التوحيد) يقع منهم (بحكم كونهم بشرًا) الظلم والفساد الأخلاقي والسلوكي	غياب غاية دعوة التوحيد	١ـ تكفير المجتمعات المسلمة. ٢ـ الإعجاب والانبهار بالنموذج الغربي. ٣ـ استخدام العنف والإرهاب لتحقيق الغاية.
العبادة الأصلية مقصودة بالتبعية لا بالأصالة، وهي وسيلة تدريبية، والمقصود أصالة تقويم السلوك الشخصي والنظام الاجتماعي.	إقامة الشعائر التعبدية في بلاد الإسلام مع وجود الخلل والتقصير في السلوك والنظام	غياب الغاية الأصلية وإقامة الغاية التبعية	١ـ الاستهانة بظهور الشعائر التعبدية في بلاد الإسلام. ٢ـ الاستخفاف بجهود العلماء والمصلحين وأجهزة الدولة المعنية بشعائر الإسلام كوزارات الأوقاف ودور الفتوى. ٣ـ تكفير المجتمعات. ٤- اللجوء إلى العنف والإرهاب.
الغاية من التدين والالتزام الانضمام لجماعة تعمل على إقامة النظام السياسي والاجتماعي المنشود	التفرق والتحزب الواقع بين الناس، بما يشجع على تقبل هذه الفكرة بتقديم البديل (الجماعة المؤمنة)	ضرورة الانضمام للجماعات والأحزاب والتنظيمات التي تعمل لتحقيق غاية الدين	١ـ سهولة تجنيد الشباب المسلم للجماعات والأحزاب والتنظيمات باسم الدين، وسهولة استخدامهم بعد ذلك في الثورة والعنف والإرهاب. ٢ـ عسكرةُ المجتمع المسلم.

إننا لو تأملنا الأطروحات المذكورة في (التأصيل الاعتقادي والفكري) سنجد أن أثرها في (النتيجة الفكرية) ثم (الأثر الواقعي) غامضٌ وخفيٌّ، كما أن ذلك (التأصيل) قد أصبح عند كثيرٍ من المسلمين من المسلَّمات والعقائد الراسخة، وأكثرهم ـ حتى على مستوى ـ طلبة العلم والباحثين والمثقفين ـ لا يدركون أنه يناقض أصل دين الإسلام مناقضة جذرية، وينقض أصوله وأركانه نقضًا تامًّا. ومن هنا فإن (المهارة) المطلوبة من الكوادر الشرعية والفكرية التي تتصدى لمواجهة التطرف خاصة، ومن طلبة العلم والمثقفين عامة؛ هي الفهم الصحيح لدين الإسلام وغاياته ومقاصده، وإدراك أبعاد ومخاطر الانحراف عنه، ووجه ارتباط ظاهرة التطرف والعنف والإرهاب بهذا الانحراف. ويمكننا الإشارة إلى هذا الجانب بهذا الجدول:

التأصيل العقائدي والفكري المنحرف	التأصيل الشرعي الصحيح	النتيجة الفكرية الصحيحة	الأثر الواقعي
الغاية من الدين إقامة عدل الدنيا	الغاية من الدين إقامة العبودية لله عز وجل	غاية الدين متحققة بوجود أمة الإسلام	١ـ فهم حقيقة الابتلاء الدنيوي والغاية من الوجود الإنساني. ٢ـ الاعتدال والتوازن.
الغاية من دعوة التوحيد ومحاربة الشرك القضاء على أسباب الطبقية والظلم وتحقيق الحرية الإنسانية	الغاية من دعوة التوحيد ومحاربة الشرك إقامة حق الله تعالى على العباد، وما ينتج عنها في الواقع الإنساني هي من محاسنها وبركاتها.	غاية دعوة التوحيد متحققة بوجود أمة التوحيد: أمة الإسلام	١ـ العناية بما اهتم به الرسل عليهم الصلاة والسلام. ٢ـ عدم استخدام الدعوة في الصراع على المادة وبين الحضارات. ٣ـ التعامل الصحيح مع مراتب أحكام الدين.
العبادات الأصلية مقصودة بالتبعية لا بالأصالة، وهي وسيلة تدريبية، والمقصود أصالة تقويم السلوك الشخصي والنظام الاجتماعي.	العبادات الأصلية مقصودة أصالة وابتداء، والإصلاح الأخلاقي والاجتماعي والسياسي مقصود بالتبعية بمرتبة ثانوية.	قيام الدين بما هو مقصود أصالة وابتداء.	١ـ العناية بالعبادات والعمل للآخرة. ٢ـ اجتناب الصراع على الدنيا والمغالبة عليها. ٣ـ معرفة قدر الخير الموجود في الأمة والمحافظة عليه وتنميته بالنصيحة والإصلاح والتسديد.
الغاية من التدين والالتزام الانضمام لجماعة تعمل على إقامة النظام السياسي والاجتماعي المنشود	الغاية من التدين والالتزام التعبد لله بإقامة حقه على الفرد، والدخول في نشاط جماعي فَضْلةٌ وليس مقصودًا أصليًّا للدين.	وظيفة الدين فردية ابتداء وجماعية تبعًا.	١ـ العناية بإصلاح النفس واستقامتها ومحاسبتها. ٢ـ عدم اعتبار الدخول في جماعة أو حزب غاية دينية. ٣ـ الحذر والتحري عند الدخول في أي عمل تنظيمي أو حزبي.

في ضوء ما تقدَّم؛ تظهر الحاجة إلى تأصيل الكوادر العلمية والفكرية وتقويتها حتى يتمكنوا من مواجهة تحدياتها، وهذا التأصيل والتقوية من خلال الدورات التعليمية والتطويرية يجب أن تتركز على الجوانب التالية:

١- تصحيح المفاهيم الكبرى للدين: مفهوم العبادة، ومفهوم الشريعة، ومفهوم الغاية من الخلق ووظيفة الإنسان، ومفهوم وظيفة الدين في الحياة، ومفهوم الابتلاء، وغير ذلك.

٢- دراسة نظرية التفسير السياسي والنفعي للإسلام والوعي بالصيغ والقوالب الفكرية المختلفة التي يتم إعادة طرح النظرية من خلالها للوصول إلى أوسع دائرة من التأثير والإقناع بين الشباب المسلم.

٣- إسقاط ما تقدَّم على الواقع المعاصر للكشف عن النتائج والآثار، وعدم الوقوف عند ظواهر الوقائع الجزئية دون ربطها بأصولها وجذورها.

ثانيًا: مواجهة سيل الشبهات:

تعجُّ الساحة الدعوية والفكرية بسيل عارم من «الشُّبهات» التي يطلقها الغلاة والمتطرفون ضد الخطاب الوسطي المعتدل في الأمة، وذلك للتشكيك في العلماء والدعاة ومراجع الفتوى والمؤسسات الدينية والعلمية والدعوية، بما يحقق هدف أولئك في اصطياد الشباب الغرِّ وتجنيدهم في أعمال العنف والإرهاب. وهذه «الشبهات» متنوعة، بعضها: تتعلق بتفسيرات مغلوطة للآيات والأحاديث، وبعضها: في فهم الأحكام الشرعية ومقاصدها وتنزيلها على الواقع، وبعضها: حول موقف العلماء والدعاة من النوازل الواقعة في الأمة، وبعضها: حول التعامل مع الحكام، وبعضها: حول المجتمعات المسلمة وصلتها بالإسلام، وبعضها: حول التعامل مع غير المسلمين سواء أكانوا مسالمين أم من أعداء الأمة الحربيين.

لا شكَّ أن هذه الشبهات المتنوعة والمتجددة تمثل تحديًّا حقيقيًّا لقدرة الكوادر الشرعية والفكرية على مواجهة التطرف والغلو، فإن تلكؤها أو ضعفها أو فشلها في تقديم الأجوبة المقنعة سيؤدي إلى زيادة قناعة الغلاة بما هم عليه من الباطل، لهذا لا بدَّ من العناية

بهذا الأمر باعتباره من أهم مداخل مواجهة التطرف.

إن أول ظهور للغلو والتطرف في الأمة كان من قبل الخوارج الذين خرجوا على جماعة المسلمين في زمن الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد كان من أهم أسباب ضلالهم توارد الشبهات عليهم في جملة من المسائل فتحوَّلت إلى عقيدة ورؤية وموقف أدى بهم إلى تكفير خيرة المسلمين واستباحة دمائهم. يتبين هذا من خلال الحوار الذي جرى بينهم وبين الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وذلك عندما استأذن عليًّا في الذهاب لمحاورتهم، وقد حفظ لنا رواة الحديث خبر تلك المناظرة، ويتبين من خلالها أن تلك الشبهات كانت في غاية الضعف والسذاجة، وقد استطاع ابن عباس أن يفنِّدها بسهولة، فقد ذكروا ثلاث شبهات: الأولى: أنَّ علي بن أبي طالب حكَّم الرجال في أمر الله، وقال الله تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ} [الأنعام: ٥٧]، وما للرجال وما للحكم؟! والثانية: أنه قاتل ولم يسْبِ، ولم يغنَمْ، إن كانوا كفارًا لقد حلَّ سِبَاهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حلَّ سِبَاهم ولا قتالهم؟! والثالثة: محى نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين؟!

وفي جواب هذه الشبهات قال ابن عباس: أما قولكم: حكَّم الرجال في أمر الله، فإنِّي أقرأ عليكم في كتاب الله أن قد صيَّر الله حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم، فأمر الله تبارك وتعالى أن يحكموا فيه، أرأيت قول الله تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ} [المائدة: ٩٥]، وكان من حُكم الله أنه صيَّره إلى الرجال يحكمون فيه، ولو شاء لحكم فيه، فجاز فيه حكم الرجال، أنشدكم بالله أحكم الرجال في صلاح ذات البين، وحقن دمائهم أفضل أو في أرنب؟ قالوا: بلى، هذا أفضل. قال: وفي المرأة وزوجها: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا} [النساء: ٣٥]، فنشدتكم بالله حكم الرجال في صلاح ذات بينهم، وحقن دمائهم، أفضل من حكمهم في بُضْعِ امرأةٍ؟ خرجت من هذه؟ قالوا: نعم. قال: وأما قولكم: قاتل ولم يسب، ولم يغنم، أفتسبون أمَّكم عائشة؟ تستحلون منها ما تستحلون من غيرها؟ وهي أمكم، فإن قلتم: إنا نستحل منها ما نستحل من غيرها، فقد كفرتم، وإن قلتم: ليست بأمنا، فقد كفرتم: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ

أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [الأحزاب: ٦]؛ فأنتم بين ضلالتين، فأتوا منها بمخرج، أفخرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم. قال: وأما محيُ نفسه من أمير المؤمنين فأنا آتيكم بما ترضون؛ إنَّ نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعليٍّ: «اكتب يا عليُّ: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله»، قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «امحُ يا عليُّ، اللَّهُمَّ إنك تعلم أني رسول الله، امح يا علي، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله»، واللهِ لَرُسول الله صلى الله عليه وسلم خيرٌ من عليٍّ، وقد محَى نفسه، ولم يكن محوه نفسه ذلك محاةً من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم[٣].

هذه الواقعة تُبرزُ أهمية المناظرة، وأثرها في نقض الشبهات إنْ تصدَّى لها عالم ذو خبرة بنصوص الشريعة ودقائق أحكامها وبالسياسة النبوية ووجه إسقاطها على الواقع، وكان من ثمارها أن رجع ألفان من أولئك الخوارج فالتحقوا بجماعة المسلمين، وبقي منهم أربعة آلاف، تمادوا في ضلالتهم حتَّى اضطر أصحاب رسول الله صلى الله عليهم وسلم إلى قتالهم، فقتلوا جميعًا.

إن التصدي لجواب الشبهات مرتبة رفيعة من مراتب العلم، وبسبب سهولة الاتصال والتواصل بين البشر اليوم؛ فإنه لا يشترط حضور الأطراف في مكان واحد ولا زمان واحد، بل قد تكون جواب الشبهات بتأليف الكتب والأبحاث والمقالات ـ وهذه طريقة معروفة عند العلماء السابقين واللاحقين ـ، أو من خلال التسجيل الصوتي أو المرئي، أو الحوار والمناظرة المباشرة من خلال وسائل الاتصالات الحديثة. فكل هذه الصور تدخل بوجه ما فيما عُرف عند العلماء بعلم البحث والمناظرة والجدل، وله أصوله وقواعده وضوابطه، لا بدَّ أن تكون لدى المتصَدِّينَ لمواجهة التطرف حصيلة جيدة منها بالدراسة والقراءة والخبرة[٤].

---

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٨٦٧٨)، وأحمد في «المسند» ٣٤٢/١ (٣١٨٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٥٢٢) و(١١٧٤٧)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وصححه ابن دقيق العيد في «الاقتراح» ١١٥، وابن الملقن في «شرح البخاري» ٥٨٧/٢٢، وابن حجر في «الدراية» ١٣٨/٢، وغيرهم. وفيه ذكر من رجع منهم.

(٤) من الكتب الحديثة في هذا المجال: «منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد» للدكتور عثمان علي حسن، وكتاب: «أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة» للشيخ الفاضل حمد بن إبراهيم العثمان.

أما الضوابط العملية لتقوية مهارات المعنيِّين بهذا الأمر، فأشير إلى أهمها باختصار:

١- **الرجوع في كل شبهة أو مسألة إلى أهل التخصص العلمي**، فيرجع في مسائل الاعتقاد إلى المتخصصين فيها من أهل العلم الثقات، وفي مسائل الفقه إلى الفقهاء المتمكنين، وهكذا في مختلف مسائل الشريعة، وفنون العلم والمعرفة، كما قال الله تعالى: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٣]، وقال تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ٨٣]، قال السعديُّ رحمه الله: «وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولَّى مَنْ هو أهل لذلك ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ»(٥).

٢- **الفقه في «السياسة الشرعية» ومنطلقاتها ومقاصدها**، والتمييز بينها وبين مسائل الاعتقاد والعبادات وأحكام الشريعة المفروضة، وقد ظهر من خلال مناظرة ابن عباس للخوارج أنهم ظنُّوا أنَّ مسائل السياسة الشرعية هي مسائل اعتقادية وتعبدية، فبنوا عليها أحكام التكفير والبراءة. والصواب أن مسائل «السياسة الشرعية» هي مسائل مصلحية غائيَّة، وفيها مجال واسع للاجتهاد تحقيقًا للمصالح الشرعية والدنيوية، ودفعًا للمفاسد على أمور الدين والدنيا، كما قال العلامة أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي (ت: ٥١٣) رحمه الله: «السياسة ما كان فعلًا يكون معه الناسُ أقربَ إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا نزل به وحيٌ. فإن أردت بقولك: إلا ما وافق الشرع، أي: لم يخالف ما نطق به الشرعُ؛ فصحيحٌ، وإنْ أردتَ: لا سياسة إلا ما نطق به الشرعُ؛ فغلطٌ، وتغليط للصحابة»(٦)، ولشيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨) رحمه الله تأصيلات متينة، وتقريرات رائعة في هذه المسألة، وكلامه فيها كثير نافع، منه قوله رحمه الله: «إن الشريعة جاءت بتحصيل

---

(٥) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٢٠، ١٩٠.

(٦) نقله ابن القيم في «أعلام الموقعين» ٣٧٢/٤، و«الطرق الحكمية» ١٧، و«بدائع الفوائد» ٦٧٣/٣.

المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإنها ترجح خيرَ الخيرين وشر الشرين، وتحصيلَ أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما»[٧].

٣- **الاستفادة من جهود العلماء والباحثين في مواجهة التطرف والغلو**، وقد برزت هذه الجهود وتكاثرت منذ أحداث الحادي عشر من أيلول (٢٠٠١م)، فأجيزت رسائل جامعية، وكتبت دراسات علمية كثيرة، وأقيمت مؤتمرات كبيرة قدَّم فيها الباحثون مئات البحوث في التخصصات الشرعية والاجتماعية والنفسية والسياسية والأمنية، وغيرها. ولا شك أن هذه المواد العلمية الواسعة لها فائدتها وأهميتها، وينبغي العناية بتصنيفها وفهرستها، وتسهيل الوصول إليها، والاستفادة منها. ويوجد بعض المواقع على الشبكة العالمية تجمع مواد علمية كثيرة مفيدة، مثل موقع: «السَّكينة»[٨].

٤- **الاستفادة من التجارب العملية في مواجهة التطرف**، وأبرز التجارب في هذا المجال هي تجربة «مركز محمد بن نايف للمناصحة والرعاية» التابع لوزارة الداخلية في المملكة العربية السعودية، وهي تجربة رائدة، حقَّقت نجاحات واسعة في الإصلاح الاعتقادي والفكري والسلوكي لمئات الأشخاص الذين وقعوا في الغلو والتطرف، ومنهم من باشر أعمال العنف والإرهاب، فجعل الله تعالى هذا المركز سببًا لهدايتهم بالحوار وكشف الشبهات والتعليم والإرشاد والتأهيل[٩]. وقد نال المركز إعجاب وتقدير كثيرٍ من المتخصصين والمهتمين، واعتمدت دولة الإمارات العربية المتحدة في سنة (٢٠١٤م) قانونًا تنص المادة (٦٦) منه على أنه: «يُنشأ بقرار من مجلس الوزراء مركز أو أكثر للمناصحة بهدف هداية وإصلاح المحكوم عليهم في الجرائم الإرهابية أو من توافرت فيهم الخطورة الإرهابية»[١٠]. وأبدت بعض الدول الأوروبية اهتمامها بالتجربة، ويبدو أن بعضها ـ وعلى وجه الخصوص: بريطانيا ـ استفادت منها ففسحت المجال لبعض الدعاة المعتدلين لمناصحة بعض المتهمين بقضايا

---

(٧) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ٢٠/٤٨.

(8) http://www.assakina.com/

(٩) راجع عن المركز موقعه الرسمي على الشبكة العالمية: www.mncc.org.sa

(١٠) جريدة الاتحاد الإماراتية في ٢٠١٤/٩/٢٤م.

الإرهاب[١١].

ثالثًا: التحديات السلوكية والعملية والمهارات المطلوبة:

أكثر حَمَلَة التطرف الفكري والمتأثرين به؛ هم من الشباب المغرَّر بهم، أو من لم ينفعه انقضاء السنين وتقدُّم العُمر بعبره وعظاته وتجاربه، لهذا يغلب عليهم الجهل والطيش واضطراب الشخصية، ويصدق عليهم وصف النبي صلى الله عليه وسلم للخوارج بأنَّهم: «حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام»[١٢]، وجملة ذلك أنَّ الغالب عليهم:

١- البعد عن التديُّن الصحيح على منهاج النبوة وسيرة السلف الصالح.
٢- الجهل بأحكام الشريعة وفقه السياسة الشرعية وفقه الواقع.
٣- اتباع الهوى.
٤- حبُّ الرئاسة والظهور.
٥- التعصب لشخص معيَّن، أو جماعة معيَّنة.
٦- المشكلات النفسية والاجتماعية.

ولا شكَّ أن التعامل مع هذا الصنف من الناس في غاية الصعوبة؛ لهذا لا بدَّ أن يكون المتصدُّون لمواجهة التطرف على رتبة عالية من القدرة العلمية، وحسن الأخلاق والتصرف، حتى تحقق جهودهم أهدافها، وتؤتي مساعيهم ثمارها. وأكتفي هنا بذكر ثلاث مهارات إزاء هذا التحدِّي:

١- الصبر والاحتساب:

هذا أهم المهارات اللازمة لكلِّ من يتصدى لمواجهة التطرف والغلو، وهو «مهارة» تكتسب بالنية الصادقة، والإخلاص لله تعالى، وصدق العزيمة، والتديُّن بالنصيحة خالصةً لوجه الله تعالى، والتقرب إليه بخدمة دينه، وخدمة المسلمين وأوطانهم وحمايتها من الأخطار

---

(١١) راجع تقريرًا نشر في صحيفة المدينة السعودية، في ٢٠١٦/٥/٦م، بعنوان: (دراسة: بريطانيا تطبق برنامج المناصحة السعودي). والعنوان فيه مبالغة، فليس ما هنالك (تطبيق للبرنامج)، لكن استفادة واقتباس جزئي.

(١٢) أخرجه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والأضرار، وليس لأي غرض دنيوي زائل، ولا مكسب ماديٍّ عاجل، فإن الأعمال لا تقبل عند الله عزَّ وجلَّ إلا إذا كانت خالصة لوجهه الكريم، موافقة لشرعه المطهَّر، كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[١٣]. فالمسلم الحقُّ يتديَّن في عمله لصالح المسلمين وأوطانهم كما يتديَّن في عبادته لله تعالى، وقصده الخير والهداية للجميع، مقتديًا في ذلك برسول الله شعيب عليه الصلاة والسلام في قوله: {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨].

إن بعض العاملين في هذا المجال قد يغفُل عن هذا الجانب؛ فيتخذ أعمال ومشاريع مكافحة التطرف والإرهاب مكسبًا ومغنمًا، ووسيلة لنيل أغراض دنيوية، وبعضهم قد يغلب عليه الحرص على إرضاء شخص أو جهة سياسية أو أمنية أو إعلامية. ولو كان فساد عمل هذا الصنف منحصرًا في نياتهم ومقاصدهم لهان الأمر، وصارت تبعته عليهم وحدهم، والقاعدة الشرعية في التعامل معهم: «نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر»، فيستفاد من أعمالهم الظاهرة، ويشكرون عليها، فلا يجوز اتهام أحد في نيته وقصده، لكن حديثنا هنا عمَّا يظهر ويبانُ في الأقوال والأفعال والتصرفات من آثار فساد النيات والمقاصد، فتفقد تلك الأعمال تأثيرها، ولا تتحقق نتائجها المنشودة، وتضيع الجهود والأموال والأوقات سدًى، ويصاب صاحب القرار والسلطة والمال بالإحباط وخيبة الآمال. فالعناية بهذا الجانب مهمٌّ جدًّا، سواء في تهيئة الإنسان نفسه، وتربيته لها بالإيمان والصبر والاحتساب، أو في اختيار الكوادر التي يُظَنُّ فيها الخير والصلاح والاستقامة، وتشهد أعمالهم ومآثرهم السابقة بذلك، وكلُّ إنسان حسيب نفسه: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٠٥].

---

(١٣) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميمٍ الداريِّ رضي الله عنه.

٢- التزام أساليب البحث العلمي الجادِّ وأدب الحوار:

تقصُرُ إمكانيات بعض الكوادر الشرعية والفكرية عن التزام الأساليب العلمية الصحيحة في البحث العلمي، وتدفع الحماسة بآخرين إلى تجاوز آداب الحوار، فيكون ذلك عائقًا أمام ما يسعون إليه من التأثير على المخالفين، وتصحيح مفاهيمهم. لقد صدر في العقود الأخيرة عدد كبيرٌ جدًّا من الكتب والأبحاث والمقالات عن البحث والحوار والرد على المخالف وآداب الخلاف، وهذه العناية البالغة بهذه الموضوعات تظهر شعورًا عامًّا عند العلماء والباحثين والمهتمين بوجود أزمة حقيقة في هذا المجال، ففي واقعنا العلمي والدعوي والثقافي قصور شديد، وتقصير واضح، في الالتزام بالمنهج العلمي وآداب الحوار والاختلاف؛ أدَّى ـ في أحيانٍ كثيرة ـ إلى زيادة مساحة الفرقة والشقاق، وإلى التحزب والتشرذم، والتشكيك والرفض والمكابرة. لهذا أرى من الضروري العناية برفع كفاءات الكوادر ومهاراتهم في هذا المجال من خلال إقامة الدورات العلمية في مناهج البحث وآداب الحوار، والاستفادة من الكتب والأبحاث، ومن أهل التخصص والخبرة.

٣- التسامح والرفق:

إن الكوادر الشرعية والفكرية التي تعمل في مواجهة التطرف والغلو تختلف طبيعة وظيفتها ومهمتها عن الكوادر الأمنية التي تعمل في مواجهة العنف والإرهاب. فهؤلاء يجب عليهم أن يضربوا بيد من حديدٍ على كل من يخرج عن جماعة المسلمين ويسعى في الإضرار بأمنهم ومصالحهم، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، لأنهم في ميدان المواجهة، وفي موقع الدفع والعقوبة. أما الكوادر العلمية والشرعية والفكرية فهم في ميدان العلم والبيان وإقامة الحجج والأدلة وتصحيح المفاهيم والأفكار، فالواجب عليهم تغليب جانب اللِّين والرفق والتسامح، وإعانة الضالين على أنفسهم بالأخذ بأيديهم إلى سبيل الحق وطريق الأمان. إن في النظر في سير المرسلين عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، وسير أتباعهم من العلماء والمصلحين؛ دروسًا عظيمة، ونماذج رائعة، تعين السائرين في هذا الطريق على ضبط النفس، وتغليب جانب الرفق والإحسان، وقد أمر الله تعالى الرسولين الكريمين موسى وأخاه هارون عليهما

السلام أن يخاطبا طاغية زمانهم بأحسن القول وألينه، ذلك أنهما كانا في موقف الدعوة لا العقوبة، فقال سبحانه: {اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: ٤٤].

هنا لا بدَّ من الإشارة إلى مزلق خطير وقع فيه كثيرٌ من الكُتَّاب والباحثين لما هم عليه من أصول فاسدة، ومفاهيم خاطئة ـ وتبعهم على ذلك آخرون عن حسن نية وقصور فهم ـ وذلك أنهم يزعمون أن من وسائل الإصلاح، ومقتضيات الرفق والإحسان؛ أن تلتمس الأعذار للغلاة والمتطرفين، فيكثرون الحديث عن الأسباب التي دفعتهم إلى الغلو والتطرف، فيذكرون الفقر والطبقية، والمشكلات الاجتماعية، والضغوط النفسية، والجهل والتخلف، وظلم الحكام، وفساد الأنظمة، إلى غير ذلك من الأسباب التي يظنونها سببًا لانجراف الشباب المسلم في طريق الغلو والتطرف والإرهاب. ورغم أن هذه الدعوى باطلة، لا برهان عليها، بل قد ثبت بيقينٍ أن أكثر المتطرفين والإرهابيين ـ وحتى الذين ينفذون عمليات انتحارية ـ هم من الطبقة الغنية أو المتوسطة، ومن أصحاب التعليم الجيد أو العالي، وأن أكثرهم كانوا يعيشون حياة مستقرة قبل أن تتلوث أفكارهم، وتفسد عقائدهم، ويكفي على هذا برهانًا أن أشهر القياديين للمنظمات الإرهابية الكبرى باسم الإسلام؛ كان أحدهم من أغنى الأغنياء، ودرس في أرقى الجامعات، والثاني: طبيب من أهل بيت عريق في الحسب والمكانة الاجتماعية في بلده، والثالث: معروف بحفظ كتاب الله تعالى وطلب العلم والنشأة في بيئة صالحة. ولا نطيل في هذا، فهو خارج عن موضوع بحثنا، لكني أقول: يجبُ التفريق هنا بين «المسوِّغات» ـ أو ما يعبر عنه كثيرًا بالمبرِّرات ـ، وبين الأسباب والدوافع والمؤثرات المباشرة أو غير المباشرة.

أما في «باب المسوِّغات» فلا تقبل الأعذار مطلقًا، إلا الأعذار الشرعية المعروفة ـ كالجنون والنسيان والإكراه، أو الاجتهاد في المواضع التي يسوغ فيها الاجتهاد بشروطه ـ فيعامل كلُّ إنسان على أساس مسؤوليته التامة عن كلِّ ما يقوله ويفعله: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} [المدثر: ٣٨]، وليس من الشرع ولا العقل أن لا يقتصَّ من القاتل عمدًا حتى تُعلم دوافعه الشخصية وأحواله النفسية، وأن لا يقام الحدُّ على زانٍ حتى يُعرف مدى تأثير المرأة عليه بالإغراء، وأن لا يحدَّ شارب الخمر إن كان شربه نتيجة إحباط نفسي، وضغوط

اجتماعية. قال تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النور: ٢]. ومن هنا: فإن ما يُلاحظ في الأبحاث التي كتبها أصحاب الانتماءات الحركية من التركيز على «المسوِّغات»، والبحث عن «الأسباب والدوافع»، واختلاق أخبار ووقائع لا أصل لها، أو مبالغ فيها؛ إنما هو محاولة غير مباشرة لتسويغ التطرف والإرهاب، والتعاطف مع الفئة الضالة، لهذا نجدهم يطلقون على المعتقلين بتهم الإرهاب وصف: «الأسرى»، ويحرضون على الدعوة للإفراج عنهم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فُكُّوا العاني»[١٤]، رغم أن هذا الحديث ورد في فكِّ أسرى المسلمين لدى أعدائهم من الكفار الحربيين.

أما الأسباب والدوافع والمؤثرات؛ فهذه تُدرس ـ من قبل المتخصصين ـ لمعرفة مداخل الانحراف والشر، وطرق الوقاية والعلاج، لا للتسويغ، ولا لإسقاط العقوبات والإجراءات الحازمة التي لا بدَّ منها لمواجهة هذه الظاهرة الخطيرة التي تفسد الدين والدنيا. إن لمراعاة هذا الجانب أصلًا صحيحًا في الشريعة، تدل عليها نصوص عديدة، منها ما ورد في حديث الذي قتل مئة نفسٍ، فنصحه العالم بالتوبة ومفارقة الموضع الذي كان فيه، وقال له: «انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أُناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوءٍ»[١٥]. فالجمع بين الأمرين من مقتضى القيام بالحق والعدل والإنصاف والرحمة، وبالله التوفيق.

---

(١٤) أخرجه البخاري (٣٠٤٦) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

(١٥) أخرجه البخاري (٣٢٣٥)، ومسلم (٢٧٦٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.